كلا لن ابيع عمري ، ولن يصل بي الغباء الى هذا الحد !!

فالحياة على الرغم مما قد يبدو فيها من تناقض هي بلا شك أعلى من كل ما أقبضه ثمناً لها، وهي باختصار الحياة الوحيدة التي أعرفها واملكها حتى الآن !!

هذه حقيقة عرفتها وآمنت بها منذ ادركت ان لي حياة .

ووجودي هنا لا يعني الا امراً واحـــداً . هو انني قبلت ان أبيعها لصاحب العمل بسعر الشهر ، وهذا يعني بدوره انني لن أفيد شيئاً ، لانه سيسرقني حياتي ، وسيمتص دمي ليعيش بها حياة على حياة ، ولن يترك لي مقابل كل ذلك الا ما يكاد يكفي لشراء كفن جيل ، ولن يتعذر علي من الآن ان اجرى عملية حسابية بسيطة لاعرف كم يساوي عمري؟!! أجل كم اساوي أنا ؟!!

وهل سوى مبلغ محدود ممدود هو أجر سنة مضروباً في بضع سنوات؟!! فيا لتعاستي ان كان هذا فقط هو كل ثمني، ويا لسوء حظي وتكدطالعي ان تمت الصفقة !!

على انني اصبحت في الايام الاخيرة اجيد الثرثرة اكثر من اي شيء آخر !

فأنا الى هذا المصير سائر لا محاله . ومهما قلت فقد بعت امسي ويومي ، وسوف أبيع مثلها غداً وبعد غد !!

والا فماذا يعمل المضطر ؟

وماذا عندي لابيعه غير عمري؟

لا شيء . لا شيء . ولهذا سأكون هنا دائماً ، وسأفقد تدريجياً حرارة حماسي وتعصبي لآرائي . وسيقل اهتمامي بحياتي وحريتي لاني سأصبح شيئاً لا إنساناً ، وليس لترس يدور في آلة حرية او حياة !! ها هي الاجهزة تشير الى ان كل شيء في المصنع يبدو طبيعياً للغاية .

وها هي تجربتي في العمل تكاد تقترب من نهايتها، وعما قليل سأنطلق من هنا وقد ازحت عن صدري عبئاً ثقيلا . ولكني عائد في الصباح لاحمل على صدري من جديد « صخرة سيزيف » . وليس في هذا ما يدعو الى امل او تفاؤل فهل سأذعن لمصيري ؟؟

كلا ان هذا لن يكون مهما كان محتوماً . بل سأناضل معه وأحاول مهما بدت محاولاتي يائسة غير مجدية ، ولن أدع فرصة الحياة تمضي هكذا في بساطة كما يفعل أغلب الناس وكما فعل عم جمعه !!

فقد قالوا انه جاء صبياً الى المصنع ، ولكن عرفته بعد ان جاوز سبعين عاماً وبعد ان بذل عمره سنة إثر سنة كانت كلها سنوات زاخرة بالعمل المتصل فماذا أخذ ؟

إن مأساته يعرفها الجميع ، وليس لغيرها ان يحدد ذلك !

كان الرجل قد اتى على العقد السابع من عمره ، ومع ذلك كنت اراه وأسمعه فأحس انه من معدن أصيل. حتى لقد كان يخيل الي ان دماء العشرين هي التي تتدفق حارة قوية في عروقـــه . فقد أخفق الزمن بكل سطوته وجبروته في ان يغير منه شيئاً او يترك به اثراً . اللهم الا مظهراً واحداً ، وقد كان يمكن ان يتغلب عليه لو تيسر له المال : تلك هي اسنانه الـــتي سقطت عن آخرها وتركت فمه أشبه بقطعة من الليل. فالطاقم الصناعي يساوي مالاً لم يجتمع يوماً في حوزة عم جمعه ، ولم يكن له القدرة على امتلاكه دفعة واحدة .

ولقد حاول مراراً ان يدخر بعض المال من اجره على امـــل ان يشتريه ذات يوم فيساعده على طحن الطعام . ولكنه كان يعود فيحتاج الى المال ليشتري به الطعام ذاته !! ومن المحقق انه استطاع ان يقهر الزمن بما اوتي من القدرة على الاستخفاف بكل شيء والسخرية من كل شيء . على انني كنت ألمح وراء سخريته الكثير من الالم والمرارة !! كان يعيش حياته كغريب مسافر لن يلبث حتى يغادر الدنيا وان كان لا يعرف موعد القطار . فذاته لا تهمه الا بقدر ما تهم هؤلاء الناس الذين لا يهتمون به .

وكنت ارى عم جمعه كل يوم تقريباً واسمع له واعجب لفلسفته ورأيه في الحياة دون ان تصادف عيني شبه بسمة على شفتيه . حتى بدا لي انـــه لا يعرف كيف يضحك!! ومع ذلك لم اكن أراه الا وأضحك من الاعماق!! ولم يكن مظهره فقط هو كل ما يثير الضحك : فالى جانب بنطلونه الذي لا يخلو من رتق هنا او هناك ، وطربوشه الغائر في اكثر من مكان ، وعصاه المجمدة كنت اجد خفة روحه ، وسرعة بديهته، وسلاطة لسانه، حتى لم يكن من الصعب عليه ان يضحك الجماد .

ولقد كان يتولى مهمة الترفيه عنا طوال الطريق الذي يستغرق بسيارة الشركة من القاهرة الى المصنع حوالي الساعة ، وهو وقت طويل لم اكن اتخيل بأن في امكاني ان أقطعه كل يوم ذاهباً آيباً دون ان يكون بيننا عم جمعه يشغلنا عن طوله بمزاحه، ويخفف من وطأته بنكاته الطريفة التي لا تفرغ ولا تنتهي ، والتي كانت تجعل من السيارة مسرحاً « للريحاني » ومن الطريق شيئاً قصيراً نود جميعاً ان يطول ويمتد !!

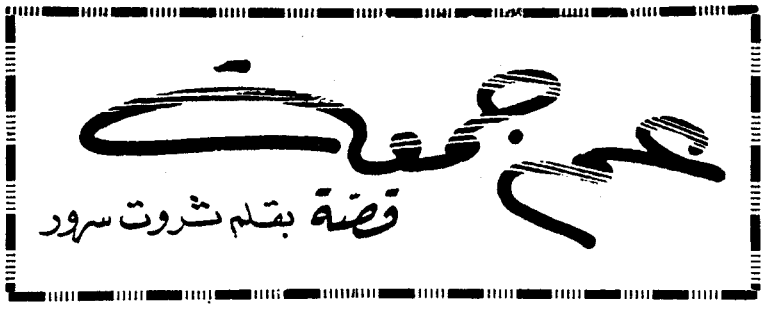

وقد حدث كثيراً انني أسفت كلما جاء بيتي ووجب علي ان أغادر السيارة قبل ان ينتهي ما بدأه عم جمعه مع أحد الزملاء !! اذ كان من حادثه ان يختار له فريسة من بيننا كل يوم فيتخذ منها هدفاً لمزاحه طوال الطريق فلا يلبث حتى يحمل الفريسة على الضحك من نفسها ولا يتركها آخر الامر الا في حالة لا تحسد عليها !!

وأحسست انني أحب هذا الرجل الذي يرفه عنا دون مقـــابل . ولم تكن سيارات الشركة لتنجو من لسانه ! « فالكارو » في نظره احسن حالا منها . ولو كان الامر بيده لباعها عن آخرها ، واستبدل بها حميراً يوفر بها على الشركة المال الكثير الذي تدفعه عبثاً في صيانتها. وهو فضلا عن ذلك سيضمن لنا ان نصل دائماً في الميعاد المقرر دون ان ينزل احدنا من فوق حماره فيدفعه من الخلف قائلا : « زقة للني » !! وعم جمعة عـــلى صواب فقد أذاقتنا هذه السيارات الكثير من اليأس والضيق . حتى لقد باتت بنا ليالي في منتصف الطريق !!

وقد حدث ذات ليلة ان كنا عائدين الى القاهرة فاصاب السيارة عطب كالعادة اضطرنا إلى أن ننتظر ريثما يقوم الميكانيكي بالكشف عليها وعمل اللازم ، وقد كان معنا صدفة في تلك الليلة وعاد بعد ان فحصها وظن انه قد أصلح ما أفسده الدهر فطلب الينا أن ندفعها من الخلف . ولكن كان يبدو أن السيارة غير راضية تماماً عن القيام لان محاولاتنا الكثيرة مع

المكانيكي باءت كلها بالاخفاق . ومضى وقت طويل قبل أن نرى من بعيد نوراً مقبلا ، فلما اقترب سمعنا صوت راديو يقترب معه تبينا أخيراً أنهما لسيارة غاية في الاناقة والرشاقة !!

وهنا كان من المحال أن يصمت عم جمعه، فأطلق العنان لسخريته . وجعل يقارن أولا بين السيارتين معدداً المزايا التي تنفرد بها سيارتنا ثم قال في تهكم مرير : « أصول يركبوا لعربيتنا راديو » ، وأردف على الاثر :

« الحقيقة دي مش عايزة يتركب لها راديو ، دي عايزة يتركب لها عربية » !!

وانفجرنا ضاحكين وقد كدنا أن ننسى مأساتنا التي نمثلها كل ليلة تقريباً في عرض الطريق. ولقد كنا نحس في ذلك الوقت بتعب وإرهاق شديدين هما كل ما أمكننا أن نعود به من المصنع . وقام عم جمعه بدوره خير قيام فأنسانا كل شيء حتى أننا ربما تعرضنا للمبيت جالسين بدون غطاء !! واستطاع الميكانيكي بعد محاولاته العديدة أن يصلحها فقط بالقدر الذي يمكنها من العودة . ولكنه أكتشف أن الكهرباء فيها ضعيفة قد لا تفي بذلك، فقرر الاسطى حسين ان يقودها بدون إضاءة مما جعل أغلب العمال يصرخون ويحتجون . فالليلة كانت حالكة وقرار الاسطى حسين فيه الانتحار لنا جميعاً لان الذي سيتولى مهمة القيادة فعلا هو السيد عزرائيل !! صحيح ان أشجار الكافور التي تنتظم الطريق على الجانبين تحدد معالمه ، ولكنها مقامرة بحياتنا على اي حال لن نخلو من الخطوره!!

ومع ذلك فقد استطاع عم جمعه ان يشغلنا كعادته عما يتهددنا من خطر وأثبت انه اقوى تأثيراً علينا من الموت .

وكان من قوله : « عايز النور ليه انت وهو ، إنتوا هتقروا ؟ »

ومنذ يومين فقط كنت أراقب سير العمل في حجرة المراقبة ، ولما تأكدت من أن كل شيء يسير سيره الطبيعي ، رحت اذرع الحجرة جيئة وذهاباً ثم وقفت آخر الامر مسندا ظهري إلى الباب مجيلا بصري في انحاء المصنع ، وما هو الا ان استقر على عم جمعه . كان قد اعتلى ماسورة ضخمة على ارتفاع يزيد قليلا عن العشرة أمتار وكان من المرجح انه يعمل على لحامها .

وأثار المشهد في نفسي اعجابي بالرجل وإشفاقي عليه في آن معاً ! فمهما قلت انه لا يزال شاباً فهو شيخ على اي حال ، ولا يمكن لي ان اتغاضى في سهولة عن سبعين عاماً .

وجعلت في نفسي ألوم كل من كان سبباً في السماح له باعتلاء الماسوره ، وعدت من جديد أذرع الحجره بخطوات عصبية ، ثم وقفت امام أجهزه الحراره وكأنما اصبح من المتعذر علي أن أستقر في مكان ، فاستأنفت الحركة وإحساسي بالقلق ونفوري من آلية العمل يزدادان ويتفاقمان .

ومرة اخرى أسندت ظهري الى الباب فتحرك الى الداخل واحدث صريراً كالانين تماماً كما لو كنت ألقيت اليه بعنائي !!

ولاحت مني نظره الى الماسورة . كانت خالية تماماً !!

وفي اسرع من ارتداد الطرف جعلت بكل قواي أذود عن راسي احتمالاً مخيفاً ، وأرجح ان الرجل غادرها مختارا بعد أن فرغ من عمله . ولكن الوقت لم يكن يتسع لاحتمال او ترجيح ! فقد رأيت على الارض أسفل الماسوره ما كنت أفرق منه! رأيت عددا كبيرا من العمال قد اجتمعوا في شبه دائرة حول شيء .

والى هذا الحد، ومع اني كنت اعرف حقيقة هذا الشيء إلا انني كنت لا أزال احاول الفرار والهروب من الحقيقة !

وهرعت الى هناك . كان عم جمعه قد سقط على الارض والدم ينزف بغزاره من أنفه وفمه ! وجدت في مكاني لا ادري كم مضى من الوقت قبل أن أعود الى حجره المراقبة بعد ان حملوا عم جمعه .. كل ما أدريه اننا عدنا في المساء على غير عادتنا .

كان كل واحد منا يحس بأن هناك ما ينقصه ، واخذ الحزن والوجوم في السيارة مكان الضحك والمزاح ، وكنا ننظر الى بعضنا جميعاً وكأننا نهم ان نسأل : أين عم جمعه ؟ رغم اننا نعلم جميعاً أين هو!!

وانتظرنا ان يأتي فيأخذ مكانه بيننا قبل ان تغادر السياره المصنع ولكن دون جدوى فانها غادرته ولم يأت !

وطال بنا الطريق على غير العاده حتى خيل الي اننا لن نصل ، وبين لحظة وأخرى رحت انظر الى المقعد الذي اعتاد ان يجلس عليه حتى خيل الي ان رغبتي الشديده في وجوده تكفي لكي يكون موجوداً بيننا .

ولكن الحقيقة دائماً بنت الالم وتوأم المراره .

فانه لم يكن بيننا حقاً سوى عامل يقطن قريباً من بيته ، وكان يحمل معه اشياء ليست غريبة علينا : الطربوش الغائر في اكثر من مكان، والعصا المجمده ، ومنديل يتقعد على بعض الخبز !!

القاهرة — ثروت سرور